MERS
MIDDLE EAST RESEARCH AND STUDIES

Source : AN-NAHAR
Date : 4-3-93
Photo No. : 32

نقد العقل الغنائي

يخال المرء في هذه الايام انه عاد سنوات الى الوراء. خمس سنوات بالتحديد. الى بداية ١٩٨٨، يوم كانت الانتفاضة الشعبية الفلسطينية في انطلاقتها الاولى. يوم كان السيلان اللفظي على اوجه، وكاد الوعي العربي، او ما تبقى منه، يغرق تحت سيل دموع التماسيح.

كان البطل وقتئذ طفل الحجارة. وكان يستحق فعلا التهليل. لكنه لم يكن يستحق، في اي حال من الاحوال، ان يُحمّل مسؤولية اكبر منه. ولا كان يستحق ان يضيع المعنى الحقيقي لتمرده، اي كونه بديلا غير كاف على الاطلاق لاختلال موازين القوى. لكن المعنى ضاع. تمّ تذويبه في غنائية مفرطة تشارك فيها العرب مع الاعلام الغربي، وحتى مع بعض الاسرائيليين. وصار تعظيم فعل الثورة مدخلا لتغييب السياسة.

وصارت القاعدة ان يراد باطلا بكلام الحق، على غرار ما فعل الشاعر العربي الاكثر رواجا في قصيدة كتبت لتمجيد طفل الحجارة وتحطيم ممثليه في آن. وغابت السياسة حتى جاءت حرب الخليج والاستفاقة المرة، فالتنازلات العربية المتكررة امام شروط جورج بوش وجيمس بايكر.

التاريخ يعيد نفسه، يقولون. لكن الاعادة لا تكون مجرد تكرار: في المرة الاولى يكون مأساة وفي الثانية ملهاة، بحسب القول المكرور. ملهاة! نعم، وان كانت ترتدي طابعا مأسويا. ليست الملهاة ان تستعيد الانتفاضة الفلسطينية بعض زخمها، ولا ان يقوم الشاب المسلح بسكين مكان طفل الحجارة (ولعل الاثنين شخص واحد في بعض الاحيان). لا، الملهاة ان يقع الاعلام العربي مجددا في شرك الغنائية وبعد خراب البصرة. الملهاة ان يثير تصعيد الانتفاضة حميّة "مطربي الانجازات"، وفق التعبير الذي استنبطه محمد الماغوط في آخر مقالاته (علما انه لم يتردد عن لعب مثل هذا الدور احيانا كثيرة)، وكأن شيئا لم يكن.

ليست عودة العقل الغنائي الى الصحف، ورديفه العقل البكائي، بالامر البسيط. لعلها، على العكس، من المؤشرات الاكثر دلالة على حال الضياع العربي. وهي تاليا تستحق التوقف امامها، اقله لتسجيل ملاحظتين: الاولى هي ان بناء العناوين والتعليقات على العواطف، مهما تكن صادقة، ينطوي على عجز عن بناء موقف سياسي مركّب، في الوقت الذي صارت لوحة العلاقات السياسية العربية (والعربية - الاسرائيلية) اكثر تعقيدا من اي وقت مضى. وبهذا المعنى، يؤدي النمط الانفعالي، وان كان ما زال قليل الاستعمال، الى نتائج شبيهة بتلك التي يصل اليها النمط التقريري السائد في بقية ايام الاسبوع: اي اغفال معايير الربح والخسارة التي يجب ان تقود العرب في قراءتهم تطور مسيرة التسوية السلمية، وما يدور حولها.

اما الدلالة الثانية لعودة الغنائية هذه، فهي في اضاءتها تفكك اللغة السياسية العربية، الضائعة بين البراغماتية المفرطة ورواسب الفكر القومجي - ولا نقول القومي - وبقايا اليسارية الطفولية. لا يعني ذلك انه يجب التخلي عن المعايير القومية ولا الاقرار بسقوط المقاربة اليسارية لشؤون العالم. انما يعني فقط ان الابقاء على التوجه القومي وروح التمرد اليساري (اذا شاء المرء الاحتفاظ بهما) لا يستقيم الا من خلال التمسك بقيم الفكر النقدي وبشيء من المسافة التاريخية.

ولا بد من القول في هذا المجال ان التخلي عن الفكر النقدي يكتسب معاني خطيرة في هذه المرحلة التي تقلب فيها نزعة كليانية تدّعي، في ما تدّعيه، احتكار المسألة الوطنية.

سمير قصير